

المختصر المفيد
في
بيان دلائل أقسام التوحيد

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

(ج) عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
المختصر المفيد في بيان دلائل اقسام التوحيد. / عبد الرزاق بن
عبد المحسن العباد البدر. - المدينة المنورة، ١٤٢٣هـ

٦٤ ص؛ ١٧×١٢ سم

ردمك: ٦ - ٤٠٣ - ٤٣ - ٩٩٦٠

أ- العنوان

١- التوحيد

١٤٢٣/٥٧٣٣

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٥٧٣٣

ردمك: ٦ - ٤٠٣ - ٤٣ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخيرة رب العالمين: نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فهذه رسالة مختصرة، وورقات يسيرة في بيان بعض البراهين والدلائل على أقسام التوحيد، وصحّة تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، اختصرتها من كتابي الذي رددت فيه على من أنكر هذا التقسيم؛ تحقيقاً لرغبة عددٍ من الأفاضل، وأسأل الله أن ينفع بهذا المختصر وأصله بمنه وكرمه.

بيان مختصر لأقسام التوحيد

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله تعالى ربُّ كلِّ شيء ومالكة وخالقه ورازقه، وأنَّه المحيي المميت النافع الضار المتفرّد بإجابة الدّعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على كلِّ شيء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.

القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو الإقرار بأنَّ الله بكلِّ شيء عليم، وعلى كلِّ شيء قدير، وأنَّه الحيُّ القيّوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النّافذة، والحكمة البالغة، وأنَّه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنَّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحانه الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والإيمان الجازم بها دون تحريف أو تعطيل أو تكيف أو تمثيل.

القسم الثالث: توحيد الإلهية، ومبناه على إخلاص التّأله لله تعالى، من المحبّة والخوف والرّجاء والتوكّل والرّغبة

وَالرَّهْبَةَ وَالذَّعَاءَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا ظَاهِرَهَا
وَبَاطِنَهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا يُجْعَلُ فِيهَا شَيْءٌ لِّغَيْرِهِ، لَا
لِمَمْلَكٍ مَّقَرَّبٍ، وَلَا لِنَبِيٍّ مُّرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا. وَهَذَا
التَّوْحِيدُ هُوَ الَّذِي تَضَمَّنَهُ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَهُوَ أَوَّلُ الدِّينِ وَآخِرُهُ، وَبَاطِنُهُ وَظَاهِرُهُ،
وَهُوَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَآخِرُهَا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ؛ فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمَأْلُوهُ الْمَعْبُودُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْخَشْيَةِ وَالْإِجْلَالِ
وَالْتَعْظِيمِ وَجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَلِأَجْلِ هَذَا التَّوْحِيدِ خُلِقَتْ
الْخَلِيقَةُ، وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتِ الْكُتُبُ، وَبِهِ افْتَرَقَ النَّاسُ
إِلَى مُؤْمِنِينَ وَكَافِرًا، وَسَعْدَاءَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَشْقِيَاءَ أَهْلِ النَّارِ.

أضداد هذه الأقسام

ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ضد؛ «إذا عرفت أن توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور المتصرف في كل مخلوقاته لا شريك له في ملكه، ف ضد ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وإذا عرفت أن توحيد الأسماء والصفات هو أن يُدعى الله بما سَمِيَ به نفسه، ويُوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ، ويُنفى عنه التشبيه والتمثيل، ف ضد ذلك شيان، ويعمهما اسم الإلحاد:

أحدهما: نفي ذلك عن الله عز وجل وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة.

وثانيهما: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وإذا عرفت أنَّ توحيد الألوهية هو أفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، ونفي العبادة عن كلِّ ما سوى الله تبارك وتعالى، فضدُّ ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الغالب على عامة المشركين، وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها^(١).

(١) «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي (١/٤١٨).

توحيد الربوبية وحده لا يكفي

لقد حكى الله سبحانه في كتابه عن المشركين أنهم مُقرُّون بتوحيد الربوبية، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمِنَ الْمَيِّتِ الْحَيَّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا فَكُلٌّ لِمَا نَذَكَّرُوكَ﴾ [النمل: ٦٢]، فهم كانوا يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره، ومع ذلك فإن هذا الإقرار لا يكفيهم ولا ينجيهم، وما ذلك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا إله إلا الله، ولهذا قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال ابن عباس: «من إيمانهم: إذا قيل لهم: مَنْ خلق السماء، وَمَنْ خلق الأرض، وَمَنْ خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون».

وقال عكرمة: «تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره».

وقال مجاهد: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويُميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. المشركون كانوا يقولون هذا»^(١).

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه

(١) انظر: «جامع البيان» (١٣/٧٧-٧٩).

لا ربَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه.

وقال قتادة: «أي تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض ثم تجعلون له أنداداً»^(١).

وقد أورد ابن القيم رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أنَّه قال: «يريد: عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام بعد أن أقرؤا بنعمتي وربوبيتي»^(٢).

ومن الشواهد على اعتراف المشركين بربوبيَّة الله من كلامهم: قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتمننَّ الله ما في نفوسكم ليخفى فمهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيُدَّخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

قال ابن كثير - وقد أورد هذين البيتين -: «فقد اعترف هذا

(١) انظر: «جامع البيان» (١/١٦٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢/٢٢٦).

الشاعر الجاهليّ بوجود الصّانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد
وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصُّحف ليوم القيامة»^(١).

وقال ابن جرير: «وقد أنشد لبعض الجاهليّة الجاهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها

ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطُّهوي:

عجلتم علينا عجيلتنا عليكم

وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق»^(٢).

والشواهد على هذا كثيرة، ومع ذلك فهم مشركون؛ لأنّهم

يعبدون مع الله غيره.

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٢٣٨).

(٢) «جامع البيان» (١/٥٨).

ذكر بعض دلائل هذه الأقسام

ولهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد دلائل كثيرة وبراهين عديدة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تحصر، يعرفها من لديه أدنى إلمام بنصوص الكتاب والسنة، بل إن من يحفظ فاتحة الكتاب^(١) وسورة الناس يجد فيها ما يشفي ويكفي من وضوح دلالة ونصوع برهان على هذا التقسيم، بل هو أكبر الحقائق الشرعية المقررة في الكتاب والسنة.

١- فمن أدلة توحيد الربوبية: قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يُبْدِيهِ مَلَكُوتُ

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٢٤) وما بعدها قوله: فصل في اشتغال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة.

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]،
 وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وغيرها من الآيات.

٢- ومن أدلة توحيد الألوهية: قول الله تبارك وتعالى:
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ الله معناه المألوه المعبود. وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
 وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله:
 ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿٣﴾
 [الزمر: ٢-٣]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ ﴿١٤﴾ فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ
 مِنْ دُونِهِ ﴿١٥﴾ [الزمر: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
 الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وغيرها من الآيات .

٣- ومن أدلة توحيد الأسماء والصفات: قول الله
 تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢﴾ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٣﴾، وقوله

سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]،
 وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]،
 وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]،
 وآخر سورة الحشر، وغيرها من الآيات.

من الآيات الجامعة

أقسام التوحيد الثلاثة

ومن الآيات التي جمعت أقسام التوحيد الثلاثة:

١- قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإن هذه الآية الكريمة المباركة متكونة من عشر جُمل، فيها من توحيد الله وتمجيده وتعظيمه وبيان تفرده بالكمال والجلال، ما يحقق لمن قرأها الحفظ والكفاية، وفيها من أسماء الله الحسنی خمسة أسماء، وفيها من صفات الله ما يزيد على العشرين صفة، وقد بُدئت بذكر تفرّد الله بالألوهية وبطلان ألوهية كل من سواه، ثم ذكر حياة الله الكاملة التي لا يلحقها فناء، وذكر قِيُومِيَّتِهِ سبحانه، أي قيامه بنفسه وقيامه بتدبير أمور خلقه، وذكر تنزّهه سبحانه عن صفات النقص كالسنة

والنَّوم، وبيان سعة ملكه سبحانه، وإنَّ جميع مَنْ في السماوات والأرض عبيد له داخلون تحت قهره وسلطانه، وذكر أنَّه من أدلة عظمته أنَّه لا يمكن لأحد من الخلق أن يشفع عنده سبحانه إلا من بعد إذنه، وفيها إثبات صفة العلم لله سبحانه، وأنَّ علمه سبحانه محيط بكلِّ معلوم، فهو يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وفيها بيان عظمة الله سبحانه بذكر عظمة مخلوقاته، فإذا كان الكرسيُّ وهو مخلوق من مخلوقاته وسع السماوات والأرض، فكيف الخالق الجليل والرَّبَّ العظيم، وفيها بيان كمال اقتداره سبحانه، وأنه سبحانه من كمال قدرته لا يؤوده أي: لا يُثقله حفظ السماوات والأرض، ثم ختمت الآية بذكر اسمين عظيمين لله، وهما: العليُّ العظيم، وفيها إثبات علوِّ الله سبحانه ذاتاً وقدرأً وقهراً، وإثبات عظمته سبحانه بالإيمان، بأنَّ له جميع معاني العظمة والجلال، وأنه لا يستحقُّ أحدُ التعظيم والتكبير والإجلال سواه.

هذا مجمل محتوياتها، فهي آية عظيمة فيها من المعاني الجليلة والدلالات العميقة والمعارف الإيمانية ما يدلُّ على عظمها وجلالة شأنها^(١).

(١) انظر: كتابي «آية الكرسي وبراهين التوحيد» (ص/ ١٤، ١٥).

٢- قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

٣- قول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

٤- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِذَا يُرِّدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

٦- قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [ص: ٦٦-٦٥].

٧ - قول الله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

٨ - قول الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لِيَافِئَكُمْ فِيهِ أَنْ يَتَّبِعَكُمْ أَنْ يُضِلَّهُمْ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٠-١١].

٩ - قول الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

١٠ - قول الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

١١ - قول الله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله مبيناً دلالة الآية على ذلك: «اشتملت [أي: الآية] على أصول عظيمة: على توحيد الربوبية وأنه تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقه ورازقه ومدبره، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنه تعالى الإله المعبود، وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ الدالة على السبب أي: فكما أنه ربُّ كلِّ شيءٍ فليكن هو المعبود حقاً فاعبده، ومنه: الاصطبار لعبادته تعالى وهو جهاد النفس وتمارينها وحملها على عبادة الله تعالى فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو الصبر على الواجبات والمستحبات والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليّات؛ فإنَّ الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله: ﴿وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، واشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات، عظيم النعوت، جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي، بل قد تفرّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات»^(١).

(١) «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» (ص/ ٤٤، ٤٥).

من الأذكار والدّعوات الجامعة لأقسام

التوحيد

إنّ الأذكار المشروعة والدّعوات المأثورة عن النبي ﷺ باب عظيم مبارك لترسيخ التوحيد وتجديد عهد الإيمان وتثبيت العقيدة وتقوية الصّلة بالله - عزّ وجلّ - وفيها اعتراف بنعمه المتوالية وآلائه المتتالية، وشكراً له على تفضّله وإنعامه وجوده وإحسانه، وفيها لجوءٌ إليه وحده، واعتماده عليه دون ما سواه بالتعوّذ به سبحانه من نزغات الشيطان وشرور النفس، وشرّ كلّ ذي شرٍّ من الخلق، ومن شرّ كلّ نقمةٍ أو بلاءٍ أو مصيبةٍ.

وفيها تقرير لتوحيد الله - عزّ وجلّ - وبراءةٌ وخلوص من الإشراك به، وإقرارٌ وإذعان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومن كان ذا عناية واهتمام بأدعية النبي ﷺ المأثورة عنه فإنه يبوء ويعترف مرّات كثيرة بأنّ الله عزّ وجلّ وحده هو الذي أَمَات وأَحْيَا، وأَطْعَم وأَسْقَى، وأَفْقَر وأَغْنَى، وأَلْبَس وأَكْسَى، وأَضَلَّ وأَهْدَى، وأنّ له الأسماء الحسنَى والصفات العُلَى، وأنه وحده المستحق لأن يؤلّه ويُعبد، ويُخضع له ويُذَلّ، وتصرف له جميع أنواع العبادة.

فالذكر كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: «شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شَمَّرَ إليها السَّالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلِّما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها، فالذكر يُثمر المقامات كلّها من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كلّ مقام، وقاعدته التي يُبنى ذلك المقام عليها، كما يُبنى الحائط على أُسِّه، وكما يقوم السقف على حائطه»^(١).

وفيما يلي ذكر لبعض الأدعية والأذكار الجامعة لأقسام التوحيد الثلاثة:

١ - عن شدّاد بن أوس - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيِّدُ الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»، رواه البخاري^(٢).

(١) «الوابل الصيّب» (ص/ ١٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦/ ٦٣٠٦).

٢ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كان نبيُّ الله ﷺ إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك الله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير، ربِّ أسألك خيراً ما في هذه الليلة وخيراً ما بعدها، وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه الليلة وشرِّ ما بعدها، ربِّ أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، ربِّ أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر»، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله»، رواه مسلم^(١).

٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله، مُرني بكلمات أقولهنَّ إذا أصبحت وإذا أمسيْتُ. قال: «قل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربِّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطان وشرِّكه».

وفي رواية أخرى: «وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم». قال: «قلها إذا أصبحت وإذا أمسيْتُ، وإذا أخذت مضجعتك»، رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما^(٢).

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٢٣).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٣٩٢، ٣٥٢٩)، و«سنن أبي داود» (٥٠٦٧)،

٥٠٨٣). وصححه الألباني - رحمه الله - في «صحيح الترمذي»

(٢٧٠١).

٤- عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وأجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. فإن مت من ليلتك مت وأنت على الفطرة، واجعلن من آخر كلامك». قال: فرددتهن لأستذكرهن فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت. قال: «لا، وبنبيك الذي أرسلت». رواه البخاري ومسلم^(١).

٥ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «اللهم رب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»، رواه مسلم^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١١)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧١٣).

٦- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»، رواه البخاري ومسلم^(١).

٧- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمتُ وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلّني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»، رواه مسلم^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٩).
 (٢) «صحيح مسلم» (٢٧١٧)، ورواه البخاري (٧٣٨٣) مختصراً.

القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إِنَّ كُلَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ شاهدة به داعية إليه؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ إِذَا خَبَرَ عَنِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبْرِيُّ، وَإِذَا دَعَا إِلَى عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَلَعَ كُلَّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ، وَإِذَا أَمَرَ وَنَهَى وَالْزَامَ بِطَاعَتِهِ فِي نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ فَهِيَ حَقُوقُ التَّوْحِيدِ وَمُكْمَلَاتُهُ، وَإِذَا خَبَرَ عَنِ كَرَامَةِ اللَّهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا يَكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ جِزَاءُ تَوْحِيدِهِ، وَإِذَا خَبَرَ عَنِ أَهْلِ الشَّرْكِ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ وَمَا يَجْلِبُ بِهِمْ فِي الْعُقُوبِ مِنَ الْعَذَابِ فَهُوَ خَبَرُ عَمَلِ تَوْحِيدِهِ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ، فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحَقُوقِهِ وَجِزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجِزَائِهِمْ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: توحيد، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: توحيد، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: توحيد، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: توحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: توحيد، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد...»^(١).

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٩، ٤٥٠).

وقال الشوكاني رحمه الله في مقدّمة كتابه القيم «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات»^(١):
«واعلم أنّ إيراد الآيات القرآنيّة على إثبات كلّ مقصد من هذه المقاصد، وإثبات اتفاق الشرائع عليها، لا يحتاج إليه من يقرأ القرآن العظيم؛ فإنّه إذا أخذ المصحف الكريم وقف على ذلك في أيّ موضع شاء، ومن أيّ مكان أحبّ، وفي أيّ محلّ منه أراد، ووجده مشحوناً به من فاتحته إلى خاتمته».

(١) (ص / ٤).

تقسيم التوحيد حقيقة شرعية معلومة

بالاستقراء

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «وقد دلَّ استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جُبلت عليه فطرُ العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمِنَ الْمَيِّتِ الْحَيَّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]. وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهل من عارف أنه عبدٌ مربوبٌ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] الآية، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني: توحيدہ جلّ وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى: «لا إله إلا الله»، وهي مترتبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت، في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجْعَلِ لِلْأَلَمَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد: قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ [حمد: ١٩] الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] الآية، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن

يقول: إِنَّ ما أوحى إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده جلّ وعلا في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جلّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]، وقد قدمنا هذا المبحث مستوفى موضحاً بالآيات القرآنية في سورة الأعراف.

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلّ وعلا على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك

بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يُعبد وحده،
ووبّخهم منكرأ عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنّه هو
الربّ وحده؛ لأنّ مَنْ اعترف بأنّه الربّ وحده لزمه الاعتراف
بأنّه هو المستحقّ لأن يُعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: ٣١]، إلى قوله:
﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، فلمّا أقروا بربوبيته وبّخهم منكرأ عليهم
شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوُ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلمّا اعترفوا وبّخهم
منكرأ عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم
قال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦)
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلمّا أقروا وبّخهم منكرأ عليهم شركهم
بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِوُ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ مَلِكُوتُ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨)
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، فلمّا أقروا وبّخهم منكرأ
عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَإِنِّي تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾، فلما صح الاعتراف وبخهم منكرأ عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح اعترافهم وبخهم منكرأ عليهم شركهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح إقرارهم وبخهم منكرأ عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقوله: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح اعترافهم وبخهم الله منكرأ عليهم بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥١﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠].

ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أن القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها خير من جمادٍ لا يقدر على شيء . فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله . فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾، ولا شك أن الجواب كما قبله . فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾، ولا شك أن الجواب كما قبله . فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾، ولا شك أن الجواب كما قبله . فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ﴾ [الروم: ٤٠]، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرأ عليهم بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

والآيات بنحو هذا كثيرة جداً، ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالالوهية ضرورة؛ نحو قوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِي رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه.

والكلام على أقسام التوحيد ستجده إن شاء الله في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك بحسب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات أخر^(١) اهـ كلامه رحمه الله.

وقد نقلتُ كلامه بطوله لأهميته، وقد نبّه فيه رحمه الله إلى أن أقسام التوحيد الثلاثة مأخوذة بالاستقراء لنصوص القرآن الكريم، وبهذا يُعلم أن هذا التقسيم من الحقائق الشرعية المستمدة من كتاب الله تعالى، وليس أمراً اصطلاحياً أنشأه بعض العلماء.

قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرّره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرّره الزبيدي في «تاج العروس»، وشيخنا الشنقيطي في «أضواء البيان» في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»^(٢).

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٠-٤١٤)

(٢) «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» (ص/ ٣٠).

وما يؤمن بالتوحيد من لم يؤمن بهذه الأقسام الثلاثة
المستمدة من نصوص الشرع؛ إذ التوحيد المطلوب شرعاً هو
الإيمان بوحداية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته،
ومن لم يأت بهذا جميعه فليس موحدًا.

دلالة كلمة التوحيد على هذا التقسيم

بل إنَّ كلمة التوحيد «لا إله إلاَّ الله» التي هي أصل الدِّين وأساسه قد دلَّت على أقسام التوحيد الثلاثة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «وشهادة أن لا إله إلاَّ الله فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلَّت عليها وشهدت بها العقول والفطر».

وأما وجه دلالة هذه الكلمة العظيمة على أقسام التوحيد الثلاثة فظاهر تماماً لمن تأمَّلها، فقد دلَّت على إثبات العبادة لله ونفيها عن سواه، كما دلَّت أيضاً على توحيد الربوبية؛ فإنَّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، ودلَّت على توحيد الأسماء والصفات؛ فإنَّ مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض، كما قال بعض العلماء: المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إله الأرض والسماء^(١).

(١) انظر: «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد (ص/ ٩) وقد نقلتُ نصَّ شيخ الإسلام عنه.

روى مسلم في «صحيحه»^(١) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه كان يقول في دبر كل صلاة حين يُسَلِّم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إيّاه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»، وقال: كان رسول الله ﷺ يهَلِّلُ بِهِنَّ دبر كل صلاة.

وقد جمع هذا التهليل المبارك أنواع التوحيد الثلاثة:

أما توحيد العبادة فقد تكرّرت فيه كلمة التوحيد لا إله إلا الله - ثلاث مرات -، وأُتبعَت في كل مرة بما يقرّر معناها، ويؤكد حقيقتها، ويوضح مدلولها.

فقوله بعد التهليلة الأولى: «وحده لا شريك له» تأكيد لما قرّره من النفي والإثبات؛ فقوله «وحده» تأكيد للإثبات، وقوله: «لا شريك له» تأكيد للنفي.

وقوله بعد التهليلة الثانية: «ولا نعبد إلا إيّاه» فيه بيان لمعناها وتفسير لمدلولها، وأنها تعني نفي العبادة بجميع أنواعها وأفرادها عن كل من سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له.

وقوله بعد التهليلة الثالثة: «مخلصين له الدين» تقريرٌ
لمدلولها كذلك، وأتت كلمة الإخلاص، فلا يستفيد منها قائلها
إلا إذا أخلص دينه لله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وكل ذلك تقريرٌ لتوحيد العبادة، ويمكن أيضاً أن يُلخص
منه تعريفٌ جامعٌ لتوحيد العبادة، فيقال هو: أن لا نعبد إلا الله
وحده لا شريك له مخلصين له الدين.

وأما توحيد الربوبية ففي قوله: «له الملك وله الحمد وهو
على كل شيء قدير»، وفي قوله: «له النعمة وله الفضل»؛ إذ إن
تفرده سبحانه بالملك والقدرة على كل شيء والنعمة والفضل
كله من معاني ربوبيّته سبحانه، ومما يحمد عليه عزّ وجلّ أنه
ربُّ العالمين لا ربَّ لهم سواه ولا مالك إلا هو، والنعمة بيده
والفضل فضله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأما توحيد الأسماء والصفات ففي قوله: «وله الحمد»؛
لأنه سبحانه يُحمد كذلك على أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وأيضاً في قوله: «وله الثناء الحسن» حيث إنه سبحانه يُثنى
عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا كما قال أعلم خلقه به نبينا

عَمْدٌ ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، رواه مسلم^(١). وكذلك قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي» رواه البخاري ومسلم^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته»^(٣).

وقد ذكر كل من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات في هذا التهليل المبارك للاستدلال بهما على توحيد العبادة، وبيان أنّ المتفرد بالملك والحمد والقدرة على كلّ شيء والنعمة والفضل، والمتفرد بالثناء الحسن لعظمة أسمائه وكمال صفاته هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه، وأنّ عبادة من سواه ضلال وباطل وكفر وطغيان.

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «بدائع الفوائد» (١٧٦/١).

وبهذا يعلم أن هذه الكلمات ليست ألفاظاً مجردة لا تدل على معنى، بل لها معانٍ عظيمة، ودلالات عميقة تنتظم التوحيد بأنواعه الثلاثة، والواجب على كل من يردّد هذه الكلمات أن يستحضر ما دلّت عليه، وأن يعرف ما تضمنته بحيث يكون مستمسكاً بالتوحيد محافظاً عليه مراعيًا لحقوقه مجانباً تمامَ المجانبة لنواقضه وما يضادّه، صادعاً به لا تأخذه في الله لومة لائم، ولو كره الكافرون.

دلالة « لا حول ولا قوة إلا بالله »

على تقسيم التوحيد

وهي كلمة عظيمة لها من الفضائل والفوائد والثمار ما لا يحصيه إلا الله، وفيها من المعاني العميقة والدلالات المفيدة ما يثبت الإيمان ويرسخ التوحيد ويقوّي اليقين ويزيد الصلة برب العالمين، ومن ذلكم اشتغالها على تقسيم التوحيد؛ فإن من جملة دلالات هذه الكلمة العظيمة:

١- تضمّنها الإقرار بربوبية الله وأنه وحده الخالق لهذا العالم، المدبّر لشؤونه، المتصرّف فيه بحكمته ومشيئته، لا يقع شيء في هذا العالم من حركة أو سكون، أو خفض أو رفع، أو عزّ أو ذلّ، أو عطاء أو منع إلا بإذنه، يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يُغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [فاطر: ٢]، فالقائل لتلك الكلمة مقرّ بهذا، مدّعن به، معترف أنّ أموره كلها بيد ربّه ومليكه

وخالقه لا قدرة له على شيء ولا حول ولا قوة إلا بإذن ربه ومولاه، وبتوفيق سيده ومليكه، ولهذا إليه يلجأ، وبه يستعين، وعليه يعتمد في كل أحواله وفي جميع شؤونه.

٢- تضمّنها الإقرار بأسماء الله وصفاته، إذ القائل لهذه الكلمة - ولا بدّ - مقرّ بأن المدعو المقصود الملتجأ إليه بهذه الكلمة، غني بذاته، وكل ما سواه فقير إليه، قائم بذاته، وكل ما سواه لا يقوم إلاّ به، قدير لذاته، وكل ما سواه عاجز لا قدرة له إلاّ بما أقدره، متصف بجميع صفات الكمال ونعوت العظمة والجلال، وكل ما سواه ملازمه النقص، وليس الكمال المطلق إلاّ له سبحانه وتعالى، فلعظمة أسمائه وكمال نعوته وصفاته استحقّ أن يقصد وحده، وأن لا يلجأ إلاّ إليه.

٣- تضمّنها الإقرار بالوحيّة الله، وأنه وحده المعبود بحقّ ولا معبود بحقّ سواه، وذلك في قوله: «إلاّ بالله».

والله معناه كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين»^(١). وقد جمع رضي الله عنه في هذا التفسير بين ذكر الألوهية وهي الوصف المتعلّق

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١/٥٤).

بالله من هذا الاسم، فهو سبحانه المألوه المعبود المرجو المطاع
الذي لا يستحقّ العبادة أحدٌ سواه، وبين وصف العبد وهو
العبودية، إذ إنّ عباد الله هم الذين يعبدونه ويألهونه ويقومون
بطاعته وحده لا شريك له^(١).

(١) انظر كتابي «الحوقلة، مفهومها، وفضائلها، ودلالاتها العقدية».

ذكر بعض أقوال السلف في تقرير هذه الأقسام

كُتِبَ السلف الصّالح مليئةً بالتصريح تارة والإشارة تارة إلى هذه الأقسام، ولو ذهبُ أنقل كلّ ما أعلمه من أقوالهم في ذلك لطال المقام، لكن حسبي أن أورد هنا بعض النقول عن سلف هذه الأئمة، ونزراً يسيراً من كلام أهل العلم المشتملة على ذكر أقسام التوحيد الثلاثة مقتصرأ هنا على مَنْ كان قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم تكذيباً لدعوى من ادّعى أن هذا التقسيم لم يعرف إلّا في زمنه.

١- قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ في كتابه «الفقه الأَبسط»^(١): «والله يُدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأنَّ الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء».

فقوله: «يُدعى من أعلى لا من أسفل...» فيه إثبات العلوّ لله، وهو من توحيد الأسماء والصفات، وفيه رد على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم من نفاة العلوّ.

(١) «الفقه الأَبسط» (ص / ٥١).

وقوله: «من وصف الربوبية» فيه إثبات توحيد الربوبية.

وقوله: «والألوهية»: فيه إثبات توحيد الألوهية.

٢ - قال ابن منده في كتابه «التوحيد»: أخبرنا محمد بن أبي جعفر السرخسي، ثنا محمد بن سلمة البلخي، ثنا بشر بن الوليد القاضي، عن أبي يوسف القاضي (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢هـ) أنه قال: «ليس التوحيد بالقياس، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل في الآيات التي يصف بها نفسه أنه عالم قادر قوي مالك ولم يقل: إني قادر عالم، لعله كذا أقدر، بسبب كذا أعلم، وبهذا المعنى أملك، فلذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يعرف إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] الآية، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الآية.

قال أبو يوسف: لم يقل الله: انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر وكيف أنا الخالق، ولكن قال: انظر كيف خلقت.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَنْوِقُكُمْ﴾ [النحل: ٧٠]، وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] أي: تعلّم أن هذه الأشياء لها ربّ يقبّلها ويبيدّها ويعيدها، وأنتك مُكوّنٌ ولك من كونك. وإنّما دلّ الله عز وجل خلقه بخلقه ليعرفوا أن لهم ربّاً يعبدوه ويطيعوه ويوحّدوه، ليعلموا أنّه مُكوّنهم، لا هم كانوا. ثم تسمّى فقال: أنا الرحمن وأنا الرحيم وأنا الخالق وأنا القادر وأنا المالك، أي هذا الذي كونكم يُسمّى المالك القادر الله الرحمن الرحيم بها يوصف.

ثم قال أبو يوسف: يُعرف الله بآياته وبخلقه، ويُوصف بصفاته، ويُسمّى بأسمائه كما وصف في كتابه، وبما أدّى إلى الخلق رسوله. ثم قال أبو يوسف: إنّ الله عز وجل خلّقك وجعل فيك آلات وجوارح عجز بعض جوارحك عن بعض، وهو ينقلك من حال إلى حال، لتعرف أن لك ربّاً، وجعل فيك نفسك عليك حجة بمعرفته تتعرّف بخلقه، ثم وصف نفسه فقال: أنا الرب وأنا الرحمن وأنا الله وأنا القادر وأنا المالك، فهو يوصف بصفاته ويُسمّى بأسمائه.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]،

وقال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، فقد أمرنا الله أن نوحّده، وليس
التّوحيد بالقياس؛ لأنّ القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله
تعالى وتقدّس لا شبه له ولا مثل له تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم قال: وكيف يُدرّك التوحيد بالقياس وهو خالق
الخلق بخلاف الخلق، ليس كمثله شيء تبارك وتعالى. وقد
أمرك الله عز وجل أن تؤمن بكلّ ما أتى به نبيّه ﷺ فقال:
﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَثَامِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقد أمرك الله عز
وجل بأن تكون تابعا سامعا مطيعا، ولو يوسّع على الأمة
التماس التوحيد وابتغاء الإيثار برأيه وقياسه وهواه إذا لضلوا،
ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ
لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فافهم
ما فسر به ذلك^(١).

(١) «التوحيد» لابن منده (٣/ ٣٠٤-٣٠٦)

ورواه أيضاً الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم إسماعيل التيمي الأصبهاني المتوفى سنة ٥٣٥هـ في كتابه «الحجة في بيان المحجة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة»، ولأهميته عنده خصّه بفصل مستقل فقال: «فصل في النهي عن طلب كيفية صفات الله عز وجل»، وذكره بإسناده من طريق السرخسي به^(١).

وأثر أبي يوسف هذا الذي رواه هذان الإمامان عظيم القدر، مشتمل على أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

قال شيخنا الدكتور علي فقيهي في التعليق على هذا الأثر: «... وقد ذكر أبو يوسف كلاماً نفيساً في باب التوحيد، هو ظاهر في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات. فذكر أنّ التوحيد لا يكون بالقياس، مبيناً أنّ القياس لا يكون إلا إذا وُجدت علة، حيث قال: ألم تسمع إلى قول الله عز وجل في الآيات التي يصف بها نفسه أنّه عالم قادر قوي ولم يقل إني قادر عالم لعلة كذا، أو أقدر بسبب كذا، قال: ولذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يُعرف الله إلّا بأسمائه،

(١) انظر: «الحجة» للتيمي (١/ ١١١-١١٣).

ولا يوصف إلا بصفاته، ثم ذكر أدلة ذلك، ثم قال: لم يقل الله انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر، وإنما قال: انظر كيف خلقت ... الخ. إن ما ذكره رحمه الله لا يحتاج لبيان، فراجعته تجد فيه الردَّ على الملحدِّين في الربوبية وفي الأسماء والصفات مستدلاً بذلك على توحيد العبادة والطاعة لله وحده»^(١).

٣- قال ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]: «فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه»^(٢).

٤- قال الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي المتوفى سنة ٣٢١ هـ في مقدمة متنه في العقيدة المشهور بالطحاوية: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره ...».

(١) انظر: هامش «كتاب التوحيد» لابن منده (٣/ ٣١٠).

(٢) «جامع البيان» (٢٦/ ٥٣-٥٤).

فقوله: «إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ» شاملٌ لأقسام التوحيد الثلاثة، فهو سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته، وواحد لا شريك له في ألوهيته، وواحد لا شريك له في أسمائه وصفاته. وقوله: «وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ» هذا من توحيد الأسماء والصفات. وقوله: «وَلَا شَيْءٌ يَعْبُزُّهُ» هذا من توحيد الربوبية. وقوله: «وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ» هذا توحيد الألوهية.

فهذه أقسام التوحيد الثلاثة صريحة واضحة في نصِّ هذا الإمام رحمه الله، وقد ذكر في مقدمة متنه المذكور أنَّه مشتمل على: «بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة: أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصل الدين، ويدينون به ربُّ العالمين».

٥- قال أبو محمد عبد الله بن محمد النيسابوري الحيري المعروف بالمرتعش المتوفى سنة ٣٢٨هـ صاحب الجُنْد: «أصول التَّوْحِيد ثلاثة: معرفة الله بالربوبية، والإقرار له بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة»^(١).

(١) أورده أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٥٦).

٦- قال أبو حاتم محمد بن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ في مقدمة كتابه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»: «الحمد لله المتفرد بوحداية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بأجلها، والعالم بتقلبها وأحوالها، المأن عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته...».

فذكر الأقسام الثلاثة: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

٧- قال ابن أبي زيد القيرواني المالكي المتوفى سنة ٣٨٦هـ في أول عقيدته من مقدمة «الرسالة»: «من ذلك: الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير، ولا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوليئته ابتداء ولا لآخريته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون ... إلى أن قال: ... تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالقاً لكل شيء، ألا هو ربّ العباد وربّ أعمالهم والمقدّر لحركاتهم وآجالهم...».

٨- قال الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، المتوفى سنة ٣٨٧هـ في كتابه «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة»: «... وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته؛ ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يشبتون صانعاً.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته؛ ليكون مبايناً بذلك لمذهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقد موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه.

إذ قد علمنا أن كثيراً ممن يقرُّ به ويوحِّده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته فيكون إلحاده في صفاته قادحاً في توحيده.

ولأننا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها.

فأما دعاؤه إياهم إلى الإقرار بربانيتها ووحدانيتها فلسنا نذكر هذا هاهنا لطوله وسعة الكلام فيه، ولأنَّ الجهميَّ يدَّعي لنفسه الإقرار بهما وإن كان جحده للصفات قد أبطل دعواه لهما...»^(١). ثم أخذ يورد ما يدلُّ على بطلان قول الجهميَّة في نفي الصفات.

وهذا نصُّ في غاية الوضوح في ذكر أقسام التوحيد الثلاثة. وتأمل - يا رعاك الله - قول ابن بطة: «ولأنَّنا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها»؛ ففيه أبلغ ردُّ على من يزعم أنَّ هذا التقسيم لم يرد في كتاب الله ولا في سنَّة رسوله ﷺ.

وتأمل قوله في بداية كلامه: «وذلك أنَّ أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء...»؛ فقد نصَّ رحمه الله على أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة هي أصل الإيمان الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان بالله، ومعنى ذلك أنَّه لا إيمان لمن لم يأت بهذه الأمور

(١) «الإبانة» لابن بطة (٦٩٣-٦٩٤) من النسخة الخطية، وفي مختصره (ق ١٥٠).

الثلاثة ولا توحيد؛ إذ الإيمان والتوحيد هو إفراد الله وحده بهذه الأمور الثلاثة، فمن لم يأت بتوحيد الربوبية فهو معطل للخالق مشرك في ربوبية الله، ومن لم يأت بتوحيد الألوهية فهو مشرك في ألوهية الله وعبادته كالمشركين عبدة الأصنام، ومن لم يأت بتوحيد الأسماء والصفات فهو كافر ملحد في أسماء الله وصفاته.

٩- ذكر الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده المتوفى سنة ٣٩٥هـ. في كتابه «كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد» أقسام التوحيد، واستعرض كثيراً من أدلتها في الكتاب والسنة بشرح وبسط لا مزيد عليه.

فمن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الربوبية ما يلي:

١- ذكر ما وصف الله عز وجل به نفسه ودل على وحدانيته عز وجل وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

٢- ذكر معرفة بدء الخلق.

٣- ذكر ما يدل على أن خلق العرش تقدم على خلق الأشياء.

٤- ذِكرُ ما يدل على أَنَّ اللهَ قدَّرَ مقاديرَ كلِّ شيءٍ قبلَ خلقِ الخلقِ.

٥- ذِكرُ ما يَسْتدل به أولو الألباب من الآيات الواضحة التي جعلها الله عز وجل دليلاً لعباده من خلقه على معرفته ووحدانيته من انتظام صنعته وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض ...

٦- ذِكرُ ما بدأ الله عز وجل من الآيات الواضحة الدالة على وحدانيته.

٧- ذِكرُ الآيات المتفقة المنتظمة الدالة على توحيد الله عز وجل في صفة خلق السموات التي ذكرها في كتابه وبينها على لسان رسوله ﷺ تنبيهاً لخلقهِ^(١).

ثم ذكر أبواباً أخرى.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الألوهية ما يلي:

١- ذِكرُ معرفة أسماء الله عز وجل الحسنة التي تَسْمى بها وأظهرها لعباده للمعرفة والدعاء والذكر.

(١) انظر هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (١/ ٦١ - ١١٦)

٢- ذِكْرُ معرفة اسم الله الأكبر الذي تَسَمَّى به وشَرَّفه على الأذكار كُلِّها.

وذكر تحت هذا الباب، ما يلي:

أ - قول النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَدْعُو النَّاسَ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

ب - قول النبي ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

ج - قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَكَ».

د - قول النبي ﷺ لرجل: «قل ربي الله، ثم استقم».

هـ - قول النبي ﷺ لرجل: «الله يمنعي منك».

و - قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ حَلَفَ بغير الله فقد أشرك».

ز - قول النبي ﷺ: «اذكروا الله على جميع الأمور، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠]»^(١).

(١) انظر هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (٢/ ١٤-٤٦)

وذكر أمورًا أخرى كثيرة متعلّقة بتوحيد الألوهية.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلّقة بتوحيد الأسماء والصفات ما يلي:

- ذِكرُ معرفة صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه، وأنزل بها كتابه، وأخبر بها الرسول ﷺ على سبيل الوصف لربه عز وجل مبيّنًا ذلك لأُمته.

وذكرَ أبواباً أخرى كثيرة في توحيد الأسماء والصفات^(١)، وكان قبل هذا ذكر جملة كبيرة من أسماء الله الحسنى^(٢).

قال شيخنا الدكتور علي بن ناصر فقيهي في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن منده المتقدم: «ومؤلف هذا الكتاب عاش في القرن الرابع الهجري (٣١٠ - ٣٩٥هـ)، وقد اشتمل كتابه على أقسام التوحيد التي ورد ذكرها في كتاب الله تعالى: توحيد الربوبية توحيد الألوهية توحيد الأسماء والصفات، فبدأ بقسم الوجدانية في الربوبية مستدلاً به على توحيد الله في الألوهية، ثم ذكر عنواناً لتوحيد الأسماء، ومنه دخل في توحيد الألوهية،

(١) انظر هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (٣/٧) إلى نهاية الكتاب.

(٢) انظر: كتابه «التوحيد» (٢/٤٧-٢٠٨)

وذلك من الفصل الثاني والأربعين إلى الفصل الخمسين، ثم عاد لتكميل أسماء الله تعالى، ثم أتبعه بتوحيد الصفات حيث بحثه مستقلاً عن أسماء الله عز وجل، ثم عاد إلى توحيد الربوبية بالتصريح بذلك في آخر الكتاب، ولم يخرج في استدلاله على ذلك عن كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ وأقوال السلف كما يجد ذلك القارئ في الكتاب^(١).

١٠- قال أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي المالكي المتوفي سنة ٥٢٠هـ في مقدمة كتابه «سراج الملوك»^(٢): «وأشهد له بالربوبية والوحدانية، وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والنعوت الأوفى».

فذكر الأقسام الثلاثة.

١١- قال أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المالكي المتوفي ٦٧١هـ: «فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية،

(١) انظر: مقدمة كتاب «التوحيد» لابن منده (١/٢٧-٢٨)، وانظر أيضاً ما ذكره شيخنا - حفظه الله - في وصف الكتاب ومباحثه (١/٢٣ - ٤٢).

(٢) (١/٧).

المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه»^(١).

وقال أيضاً: «أصل الشُّرك المحرَّم اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إنَّ موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهاً»^(٢).

فهذه جملة من النصوص عن أئمة من السلف وعلماء المسلمين رحمهم الله في عصور مختلفة، مشتملة على أقسام التوحيد الثلاثة بغاية الجلاء والوضوح، دالة على أنَّ أهل السنة والجماعة متتابعون على مرِّ القرون على هذا التقسيم، وهكذا من جاء بعد هؤلاء من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، والحافظ ابن كثير، والإمام الذهبي، والمقرئزي، وابن أبي العزّ الحنفي، والسفّارين، والصنعاني، والشوكاني، وشيخ الإسلام

(١) «تفسير القرطبي» (١/٧٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/١١٨).

محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه وغيرهم كثير مما يصعب
حصره ويطول استقصاؤه. فهؤلاء جميعاً ليس بينهم خلاف
في تقرير هذه الأقسام، وذلك اتباعٌ منهم للكتاب والسنة،
ولزومٌ لما جاء فيهما، فهم يتبعون ولا يبتدعون، ويقتدون
ولا يبتدون، ومخالفوهم هم أهل البدع والأهواء،
المُشاقُّون لله ولرسوله، المتَّبِعون غير سبيل المؤمنين.

ونسأل الله أن يرزقنا التوحيد الخالص والإيمان الراسخ،
وأن يوفقنا لاتباع هدي سيّد المرسلين وإمام الموحّدين: نبينا
محمد صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد
لله ربّ العالمين.

فهرس الموضوعات

المقدمة.....	٣
بيان مختصر لأقسام التوحيد.....	٤
أضداد هذه الأقسام.....	٦
توحيد الربوبية وحده لا يكفي.....	٨
ذكر بعض دلائل هذه الأقسام.....	١٢
من الآيات الجامعة لأقسام التوحيد الثلاثة.....	١٥
من الأذكار والدّعوات الجامعة لأقسام التوحيد.....	٢٠
القرآن كله مقرّر لهذا التوحيد.....	٢٥
تقسيم التوحيد حقيقة شرعية معلومة بالاستقراء.....	٢٨
دلالة كلمة التوحيد على هذا التقسيم.....	٣٧
دلالة لا حول ولا قوة إلا بالله على تقسيم التوحيد.....	٤٢
ذكر بعض أقوال السلف في تقرير هذه الأقسام.....	٤٥